Hints from the Muslim Scholars' views about Humanism and Alienation

Aadel Gharib

PhD in Islamic Philosophy, al-Mustafa International University, Algeria. E-mail: a.laghrib@aldaleel-inst.com

Summary

Alienation is among the topics of anthropology that thinkers of different walks have been concerned to study and research on. Many opinions have been put forward about what alienation is and how it has been formed, based on the view that each trend takes about the nature and reality of man. On this basis, the current study, according to an analytical, descriptive approach, sheds light on the reality and nature of alienation by studying and analyzing the various definitions given about this concept.

Based on many Qur'anic verses and Prophetic traditions, it can be said that the reality of man is man's essence itself, which is expressed by "***I*** *(ego)*" and "***myself***", and that the elevation and loftiness of this fact has a relationship with the extent of man's connection with God. So, if someone forgets God, he shall be alien and forget even himself. It is from this point of view that alienation should be studied, starting with alienation from God. This has been confirmed by all teachings of heavenly religions, especially Islam, which has established a clear path for man's perfection and for the treatment of self-alienation.

Keywords: humanism, alienation, self, God, man, ego.

Al-Daleel, 2022, Vol. 4, No. 4, PP. 39 -57
Received: 11/12/2021; Accepted: 19/1/2022
Publisher: Al-Daleel Institution for Doctrinal Studies
©the author(s)

قبس من رؤى العلماء المسلمين حول الأنسنة والاغتراب

عادل لغريب

دكتوراه في الفلسفة الاسلامية، جامعة المصطفى العالمية، الجزاير. البريد الإلكتروني:

a.laghrib@aldaleel-inst.com

الخلاصة

يعتبر الاغتراب أحد الموضوعات التي تقع ضمن حقل الأنثربولوجيا ومعرفة الإنسان، حيث عني المفكّرون على اختلاف مشاربهم ببحثها ودراستها. وقد طرحت العديد من الآراء حول ماهية الاغتراب وكيفية تبلوره وذلك انطلاقًا من الرؤية التي يتّخذها كلّ اتّجاه حول ماهية الإنسان وحقيقته. على هذا الأساس يسلّط التحقيق الحالي وفق منهج تحليلي وتوصيفي الضوء على حقيقة وماهية الاغتراب من خلال دراسة مختلف التعاريف التي عُرضت حول هذا المفهوم وتحليلها. واعتمادًا على العديد من الآيات والروايات يمكن القول إنّ حقيقة الإنسان هي نفسه ذاتها، والتي يعبّر عنها بـ "الأنا" و"نفسي". وأنّ رقيّ هذه الحقيقة وتعاليها له علاقة بمدى ارتباطه بالله، بحيث إنّ الإنسان إذا نسي الله فإنّه سيصبح غريبًا وينسى حتّى نفسه. فمن هذه الجهة يتوجّب دراسة الاغتراب انطلاقًا من الغربة عن الله. وهذا ما أكّدته جميع تعاليم الأديان السماوية لا سيّما الدين الإسلامي، الذي وضع منهاجًا لتكامل الإنسان ومعالجة الاغتراب الذاتي.

الكلمات المفتاحية: الأنسنة، الاغتراب، النفس، الله، الإنسان، الأنا.

مجلة الدليل، 2022، السنة الرابعة، العدد الرابع، صص. 39 - 57

استلام: 2021/12/11 ، القبول: 2022/1/19

الناشر: مؤسسة الدليل للدراسات والبحوث العقديّة

© المؤلف

المقدّمة

إنّ للبشر مهما كانت ثقافتهم ولغتهم حقيقةً وواقعيةً يشيرون إليها بعبارة "أنا" و"نفسي". فإذا كانت العيش ممكنًا من دون التعرّف على الأمور والحوادث التي تدور حول الإنسان، فإنّ الحياة من دون معرفة "الأنا" و"النفس" والجهل بها لن يكون مبرّرًا وميسّرًا؛ لأنّ معرفة الأنا والنفس تقود الإنسان إلى معرفة الكمالات التي يتوجّب أن يتحلّى ويتمتّع بها. وما دام الإنسان لم يتعرّف على نفسه، فلن يتحرّك نحو الكمالات والقيم التي ينبغي عليه التحلّي بها، بل سيؤدّي تجاهله لها وغفلته عنها إلى ضياع نفسه وأناه.

وعلى الرغم من أنّ "الأنا" و"النفس" هي من أكثر الأشياء قيمةً عند الإنسان، بحيث إنّ عليه السعي وراء تكاملها ورشدها، إلّا أنّ الناس يغفلون وينسون ذلك نتيجة بعض العوامل المعرفية والنفسية والسلوكية والاجتماعية والعاطفية. ما يؤدّي إلى غفلة الإنسان عن "أناه" و"نفسه" وغربته عنها وسعيه وراء "أنا الآخر". وعلى هذا الأساس فقد حاول العديد من المفكّرين في القرون الأخيرة إماطة اللثام عن ماهية هذه الحقيقة، وسعوا نحو الكشف عن هذه الظاهرة السلوكية التي تربط بهوية الإنسان وحقيقته؛ إذ تمّ التعرّض إليها ضمن عنوان "الاغتراب" أو "الاستلاب" وغيرها، وقدّمت العديد من الدراسات والتحقيقات في هذا المجال.

بناءً على هذا فإنّ مفردة "الاغتراب" أحد المصطلحات التي شاع استخدامها في القرون الأخيرة، وما ساعد على انتشارها هو ما عانته البشرية من أزمات وحروب ومعارك دموية وقعت بين العديد من الدول ـ خاصّةً الحروب العالمية ـ وما خلّفه ذلك من انعكاس على الإنسان. وقد عني بدراسة الاغتراب في الأنثربولوجيا ومختلف حقول الدراسات والعلوم الإنسانية؛ إذ عولجت وبحثت هذه المسألة التي يعبّر عنها في اللغات الأوربية بلفظ "Alienation"[1] [مجموعة من المؤلّفين، المعجم الفلسفي، ص 16].

علاوةً على الأنثربولوجيا، في السوسيولوجيا، والبسيكولوجيا، والأخلاق، والحقوق، وعلم النفس الإكلينيكي وبعضٍ آخر من فروع العلوم الإنسانية.

وعلى الرغم من أنّ طرح مسألة الاغتراب وتبيينها قد نسب في الدراسات الإنسانية والأنثربولوجية إلى بعض علماء القرنين 18 و19 م أمثال جورج هيجل (Georg Hegel) (1770-1831م) ولودفيغ فويرباخ (Ludwig Feuerbach) (1775-1833م) وكارل ماركس (Karl Marx) (1818-1883م) [كوبلستون، تاريخ الفلسفة، ج 7، ص 225 و291 و307]، إلّا أنّ الدراسات المعمّقة تشير إلى أنّ الجذور

---

1 ـ وهي مشتقّة من الكلمة اللاتينية "Alienatio" المشتقّة بدورها من الفعل "Alienare" بمعنى ينقل أو يحوّل أو يسلّم أو يبعد، وهذا الفعل اللاتيني مشتقٌّ بدوره من كلمة لاتينية هي "Alienus" التي تعني الانتماء إلى الآخر.

العميقة لطرح هذا الموضوع تعود إلى أبعد من ذلك؛ لأنّه يرجع إلى تعاليم الأديان السماوية أساسًا. فقد اهتمّت الأديان السماوية بهذه الموضوع أكثر وأكبر من غيرها من المفكّرين أو المدارس، وذلك بصور وأشكال وبيانات مختلفة، محذّرةً منه ومبيّنةً نماذج لها، كما قدّمت مجموعةً من الحلول للوقاية منها وعلاجها. [رجبي، انسان شناسى، ص 69 ـ 71]

من هنا يأتي التحقيق الحالي إلى دراسة موضوع الاغتراب وماهيته؛ باعتباره أحد الموضوعات المهمّة التي تمسّ الإنسان المعاصر خصوصًا، وأنّه أحد إفرازات الحداثة والأنسنة، وذلك وفق منهج تحليلي وتوصيفي يعتمد على العقل ويسعى إلى تقديم رؤية الدين الإسلامي على ضوء رؤى العلماء المسلمين الذين عالجوا هذا الموضوع بالإستعانة بالآيات والروايات التي تعرّضت إلى هذه المسألة.

وقبل التعرّض إلى دراسة مفهوم الاغتراب ورؤى المفكّرين المسلمين حوله، تجدر الإشارة إلى مسألة مهمّةٍ مرتبطةٍ أشدّ الارتباط بهذا المفهوم، وهي مسألة تبيين حقيقة الإنسان والنفس الإنسانية وماهيتها؛ وذلك لأنّ إدراك ماهية الاغتراب منوط بمعرفة معنى النفس الانسانية، ومن هنا سيتمّ التعرّض بما يسمح به مجال المقال لتعريف النفس.

تعريف النفس

لقد ذكر اللغويون عدّة معانٍ مختلفةٍ للنفس كالروح والشخص وعين الشيء، وحقيقة الشي وذاته، وما يكون به التمييز والدم، الإنسان جميعه والجسد. [ابن منظور، لسان العرب، ج 14، ص 233؛ الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص 818؛ الفيومي، المصباح المنير، ج 12، ص 617]

ويبدو أنّ مفردة الروح لها علاقة مباشرة مع بحث الاغتراب. كما أنّ "حقيقة الشيء" تنطبق على الروح في مورد الإنسان، فيمكن كذلك الاستفادة منها في هذا الصدد.

وللنفس في القرآن الكريم استخدمات متعدّدةٌ منها: الذات، شخص الإنسان (أي الموجود المركّب من الروح والبدن)، روح الإنسان، ومراتب النفس على اعتبار أنّ للنفس مراتب كالمسوّلة والأمّارة واللوّامة والمطمئنّة. [الراغب الأصفهاني، مفردات ألفاظ القرآن، ص 1412؛ الطبرسي، مجمع البيان في تفسير القرآن، ج 1، ص 133]

وذهب المفكّرون المسلمون من أمثال ابن سينا وغيرهم بالاعتماد على الأدلّة العقلية والنقلية إلى أنّ للإنسان علاوةً على البعد المادّي بعدًا مجرّدًا هو نفس الإنسان وذاته. [ابن سينا، النفس من كتاب الشفاء، ص 288 ـ 303؛ صدر المتألهين، الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة، ج 8، ص 245؛ الطباطبائي، نهاية الحكمة، ص 240]. إذ يعبّر عنها بـ "أنا" و"أنت". وللنفس مراتب هي النباتية والحيوانية والإنسانية.

فالمراتب النباتية والحيوانية وإن كانت ضروريةً لحياة الإنسان، إلّا أنّها لا تشكّل حقيقته، وإنّما حقيقته تكمن في المرتبة العالية للنفس. وهنالك من يذهب إلى أبعد من ذلك حينما يرى أنّ الإنسان وإن كان له بعدان مادّي ومجرّد، إلّا أنّ حقيقته الواقعية ليست مرتبطةً بالنفس المستقلّة، وإنّما هي تلك النفس التي هي عين التعلّق والفقر إلى الله تعالى، فهذه الأخيرة هي ما يشكّل حقيقة الإنسان. ومن هنا يمكن نيل حقيقة الإنسان وإدراكها إذا لم ننظر إليه بنظرة استقلالية، وإنّما مع أخذ مبدئه وعلّته بعين الاعتبار. ووفق هذه الرؤية فإنّ ما ننظره إليه حقًّا هو المبدأ، والنفس في هذه الحالة ليست سوى مظهر وتجلٍّ لها، فهي في ذاتها ليست موجودًا مستقلًّا حتّى يمكن إدراكه. وبهذا فإنّ "أنا" الإنسان وحقيقته لا يمكن أن يتحدّد معناها ومفهومها إلّا من خلال ارتباطها بعلّتها التي هي الله تعالى. [مطهرى، ياداشت هاى مطهرى، ج 1 و2، ص 121]

بناءً على هذا فإنّ للنفس في اللغة معاني مختلفةً، كما أنّ لها استخدماتٍ متعدّدةً في القرآن وكلمات المفكّرين المسلمين. ومن بين المعاني التي تدلّ عليها اللغة واستخدمت في القرآن وكلمات المفكّرين روح الإنسان، حيث يعبّر عنها بكلمات مثل "أنا" و"نفس".

مفهوم الاغتراب

للاغتراب استخدمان: عامٌّ وخاصٌّ.

يتضمّن الاغتراب في الاستخدام العامّ مسائل من قبيل: ازدواج الشخصية أو الشخصية الثنائية في علم النفس، والإنسان المنحرف في علم الاجتماع خاصّة في رؤية دوركايم، وذلك من خلال تفكّك القيم والمعايير الاجتماعية وأزمة الهوية في البحوث الثقافية والاجتماعية [حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية، ص 43]، كما أنّها في الثقافة القرآنية تشتمل نسيان النفس والغفلة عنها من جهة، والاهتمام بالنفس "أهمّتهم أنفسهم" من جهة أخرى. وبعبارة أخرى فإنّ الغفلة عن النفس أو الاهتمام الزائد بالشهوات النفسية وإرضاءها يعدّ من موارد الاغتراب.

وفي الاستخدام الخاصّ يتمّ التأكيد على هذه النقطة، وهي ضرورة عدم الخلط بين هذه الموارد والاغتراب، حيث يعتبرون للاغتراب خصوصيةً وهي أنّ للفرد صورةً عن ذاته تختلف عن صورته الواقعية التي يتحرّك في الحياة وفقها، وفي الواقع هو مسلوب وغريب عن ذاته الواقعية والحقيقية، وكأنّ الإنسان يعدّ ذاته الحقيقية موجودًا غريبًا، والموجود الآخر الذي صوّره عن نفسه هو ذاته.

والإنسان في ثقافة الأديان السماوية وخاصّةً الإسلام هو موجود يمكن أن يرتقي ويتكامل ويتعالى بهويته الواقعية أو أن يتهاوى بها. وكذلك يمكن لعلمه الحضوري نصف الشعوري أو اللاشعوري أن

يثير ويكمّل معرفته بهويته وذاته الحقيقية أو أن يغفل عنها وينساها، ومن خلال إعطاء الأصالة للبعد الحيواني يعدّ ذاته موجودًا آخر (حيوانًا) ويختار نمط حياة حيوانيًّا ويتنزّل بسبب أعماله إلى مرتبة الحيوانية أو أدنى من ذلك. مثل هؤلاء الناس قد ابتعدوا في الواقع عن ذاتهم الحقيقية وسلبوا عنها، يعتقدون ذاتهم موجودًا دنيئًا، وعلى أساس هذه الصورة الجديدة ينظّمون نمط حياتهم. [رجبی، انسان شناسی، ص 69 ـ 71]

يحاول هذا المقال عرض رؤية بعض المفكّرين المسلمين حول مسألة الاغتراب، وذلك في ضوء الرؤية التي تمّ التنظير لها في الثقافة الإسلامية وإلهام المعارف القرآنية والمدعومة بالمعارف العقلية الإسلامية.

تقوم الرؤية الإسلامية حول مسألة الاغتراب كغيرها من العديد من المسائل الأخرى على أربعة أقسام:

1ـ أصول مسألة الاغتراب وأسسها.

2ـ التنظير الذي يمثّل الهيكل الأساس للرؤية.

3ـ صور الاغتراب.

4ـ علاج الاغتراب.

1ـ أسس مسألة الاغتراب وأصولها

إن لمسألة الاغتراب أصولًا تشكّل الأساس التي تقوم عليه هذه الظاهرة، بحيث يكون للاعتقاد أو عدم الاعتقاد بها وطبيعة الموقف تجاه أيّ أساس منها تأثيرٌ خاصٌّ في فهم هذه الظاهرة وتحديد الرؤية السلمية منها. وعلى هذا الأساس يتمّ في هذا الشطر من المقال بيان بعض الأسس والأصول الخاصّة بالاغتراب، كما ذكر بعض المفكّرين المسلمين.

أ ـ وجود هوية وذات إنسانية

بغضّ النظر عن الاتّجاه المنكر لأيّ وجود خارجي، فإنّ الموقف الفكري الآخر للمدارس البشرية قد انقسم حول مسألة وجود هوية وذات إنسانية عمومًا إلى مجموعتين: المذاهب التي تعتقد بأنّ للإنسان ذاتًا وهويةً تسمّى إنسانًا، والمذاهب التي تنكر الذات والهوية الإنسانية للإنسان. [مجموعة من المؤلّفين، بحوث في الكلام الجديد، ص 520 فما بعد]

يعتقد المنكرون للهوية المستقلّة ـ ما فوق الحيوانية ـ للإنسان أنّ الإنسان عبارةٌ عن صفحة بيضاء يتكوّن في نطاق هذا العالم، ويعنى به أو أنّ الإنسان هو واحد من الحيوانات التي لا تختلف اختلافًا ماهويًّا فيما بينها، وإنّما هو حيوان أكثر تعقيدًا فحسب، وعلى أيّة حال فهو فاقدٌ لهويّةٍ مستقلّةٍ فوق المرتبة الحيوانية. [مصباح يزدى، به سوى او، ص 87 ـ 93]

في قبال ذلك يرى بعض المفكّرين المسلمين أنّ للنوع الإنساني ذاتًا وهويةً مستقلّةً، وهي ما فوق المرتبة الحيوانية ويتمتّع بها أفراد الإنسان كافّةً، كما أنّ وجود هذه الهوية المستقلّة والما فوق الحيوان هو بدهي أو قريب إلى البداهة وكلّ واحدٍ يدرك ذلك، يقول: «إنّا لا نشكّ في أنّا نجد من أنفسنا مشاهدة معنًى نحكي عنه: بأنا، ولا نشكّ أنّ كلّ إنسان هو مثلنا في هذه المشاهدة التي لا نغفل عنه حينًا من أحيان حياتنا وشعورنا» [الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 1، ص 365].

فمثلًا يعالج السيّد الطباطبائي ـ وغيره من المفكّرين المسلمين كما مرّ ـ في موارد متعدّدة موضوع أنّ الإنسان مركّب من جسم وروح، وأنّ الله خلق الإنسان مركّبًا من جزئين ومن جوهرين هما الجسم والروح. حيث يقول السيّد الطباطبائي: «وقد أنشأ الله ـ سبحانه ـ هذا النوع، حين ما أنشأ مركّبًا من جزئين ومؤلّفًا من جوهرين، مادّة بدنية، وجوهر مجرّد هي النفس والروح» [الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 2، ص 65 ؛ مطهرى، سيرى در نهج البلاغه، ص 298].

هذا ويؤكّد العلّامة على مسألة مهمّةٍ وهي أنّ الإنسان ـ مثلما يعتقد بعض علماء علم الحياة والعلوم الإنسانية ـ لا ينحصر في البعد الجسماني والظواهر الإنسانية، ولا تقبل التحوّل والانخفاض إلى المادة (الجسم وآثار الجسم)، بل حتّى آثار البدن الطبيعية أيضًا نشأت من هوية الإنسان ما فوق الحيوانية.

يقول: «الإنسان واحد حقيقي هو المبدأ الوحيد لجميع آثار البدن الطبيعية والآثار الروحية» [الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 20، ص 77].

ب ـ الروح هوية الإنسان الحقيقية

يذهب المفكّرون المسلمون إلى أنّ هوية الإنسان تتركّب من بعدين، هما الجسم والروح، فلو أنكر أحدهم البعد الروحاني واختزل الإنسان في البعد المادي والجسماني، فإنّ هذا الأمر غير صحيح؛ لأن تحليل الإنسان لنفسه إذا انحصر في البعد المادّي فحسب فإنّ همّته ستقتصر على هذا البعد فقط، ما يؤدي إلى زوال إنسانية الإنسان التي ترتبط بالبعد الروحي والنفسي، وسيتنزّل الإنسان إلى حدّ المادّيات. [مطهرى، سيرى در نهج البلاغه، ص 295]

هذا ويؤكّد بعض المفكّرين المسلمين هذا الأمر، وهو أنّ ما يشكّل حقيقة الإنسان وهويّته الحقيقية هو روحه التي تنعكس من خلالها آثار البدن الطبيعية والآثار الروحية، فليست هوية الإنسان الحقيقية وفق هذه النظرة هي البدن الجسماني، ولا مزيج من الروح والجسم، بل هي موجود بسيط مجرد. يقول السيد الطباطبائي: «إنّ الروح تمام حقيقة الإنسان الذي يعبّر عنه بأنا، لا كما ربّما يتخيّل لنا أنّ الروح أحد جزئي الإنسان لا تمامه، أو أنّها هيئة أو صفة عارضة له ... وليس هو شيئًا من أعضائنا أو أجزاء بدننا» [الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 7، ص 69].

جـ ـ تجرّد هوية الإنسان الحقيقية

لقد ذهب المفكّرون المسلمون من أمثال ابن سينا وغيرهم إلى الاعتماد على الأدلّة العقلية والنقلية إلى أنّ للإنسان علاوةً على البعد المادّي بعدًا مجردًا هو نفس الإنسان وذاته. [ابن سينا، النفس من كتاب الشفاء، ص 288 ـ 303؛ صدر المتألهين، الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة، ج 8، ص 245؛ الطباطبائي، نهاية الحكمة، ص 240]

فمثلًا يذهب السيّد الطباطبائي في موارد متعدّدةٍ إلى تجرّد هوية الإنسان الحقيقية وعدم مادّيته. وبناءً على هذا فقد ذكر في المجلّد السادس عشر [ص 250 ـ 253] العديد من الشواهد على تجرّد الروح، وأنّها هوية الإنسان الحقيقية. وقد وصل إلى نتيجة مفادها أنّ: «الإنسان واحد حقيقي ... كما أنّه مجرد في نفسه عن المادّة» [الميزان، ج 20، ص 139؛ ج 2، ص 113].

إنّ لكل واحد من الأسس الثلاثة المذكورة دورًا خاصًّا في تشكيل ظاهرة الاغتراب وبيانها والموقف منها، فمن ينكر الهوية والذات الإنسانية رأسًا، أو لا يؤمن بكون الروح ركنًا أصيلًا فيها أو يعتبرها مادّيةً، فإنّ موقفه من الاغتراب سيكون مختلفًا عمّن يعتقد بوجود هوية حقيقية ومستقلّة للإنسان، وأنّ الروح تشكّل ركنها الركين وأنّها مجرّدة.

2ـ الاغتراب

بناءً على الأسس المذكورة أعلاه يمكن القول إنّ الرؤية الإسلامية إلى الاغتراب تتحدّد فيما يلي: إن أيّ إنسان لا يدرك بصورةٍ صحيحةٍ أنّ له هويةً حقيقيةً، وأنّ الروح تشكل كيانه الحقيقي، وأنّها مجردة، فإنّه يعيش مغتربًا.

وبعبارة أخرى إنّ الموجود الذي يمتلك صورةً ظاهريةً عن ذاته تختلف عن صورته الواقعية الصحيحة لها فإنّه يعيش حالة من التوهّم، وبدل أن يعمل من أجل ذاته الحقيقية فإنّه يتحرّك في سبيل

ذاته المتوهّمة. هذا ما يمثّل حالة اغتراب الإنسان عن ذاته. [سروش، قصه ارباب معرفت، ص 445]

هذا ويعتقد بعض الأعلام أنّه بالرغم من أنّ لدى الإنسان معرفةً إجماليةً وفي الوقت نفسه يقينيّةً لا تقبل الشكّ عن ذاته وحقيقة هويته، إلّا أنّ المعرفة الكاملة والتفصيلية لأيّ إنسان بذاته وهويته الحقيقية والواقعية إنّما تحدث عندما يدرك الإنسان روحه المجرّدة ـ التي تمثّل هويته الحقيقية ـ بالعلم التفصيلي.

هذه المعرفة التي تكون بعلمه الحضوري تتضمّن ثلاث حقائق:

الأوّل: العلم الحضوري بالفقر المحض، فالإنسان لو يعرف ذاته يجد أنّها عين فقر: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللهِ وَاللهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ [سورة فاطر: 15]؛ ولهذا يقول: «فالحاجة إلى ربّ ـ مالك مدبر ـ حقيقة الإنسان والفقر المكتوب على نفسه» [الميزان في تفسير القرآن، ج 8، ص 3 و7].

الثاني: العلم الحضوري بأنّ ذاته منقطعة عن أيّ موجود آخر سوى الله. يقول في هذا المجال: «إنّ المتنبه إلى هذه الحقيقة حينما يلتفت إلى حقيقة موقفه من ربّه و نسبته إلى سائر أجزاء العالم، وجد نفسه منقطعةً عن غيره، وقد كان يجدها على غير هذا النعت» [الميزان في تفسير القرآن، ج 6، ص 167].

الثالث: العلم الحضوري بأنّ ذاته جميعًا هي عين الاحتياج إلى الله، فالإنسان لو ينقطع عن غير ذاته ويكوّن دائمًا ذاته وهويته الحقيقية يجد أنّ ذاته متعلّقةٌ بالله بشكل تام، وأنّ الله هو مالكه ومدبّره. والإنسان يبلغ هذه النتيجة حينما يهتم بنفسه: «لا يمسّها بالإحاطة والتأثير إلّا ربّها المدبّر لأمرها الذي يدفعها من ورائها ويجذبها إلى قدّامها بقدرته وهدايته، ووجدها خاليةً بربّها ليس لها من دونه من والٍ» [الطباطبائي، الميزان في تفسير القرآن، ج 6، ص 93].

إنّ الإنسان المغترب هو من لم يدرك روحه المجردة وهويته الحقيقية وظنّ أنّ بعده الحيواني هو هويته الحقيقية. ظاهره في هذه الحالة هو إنسان وحقيقته هي حيوان، بمعنى أنّ الأمور النفسية والروحية والفعاليات والميول كافّة هي حيوانية؛ لأنّه لما اعتقد أنّ بعده الجسماني والحيواني هو حقيقته فقد اختار نمط الحياة الحيوانية. «فَالصُّورَةُ صُورَةُ إِنْسَانٍ، وَالْقَلْبُ قَلْبُ حَيَوَانٍ، لَا يَعْرِفُ بَابَ الْهُدَى فَيَتَّبِعَهُ، وَلَا بَابَ الْعَمَى فَيَصُدَّ عَنْهُ، وَذَلِكَ مَيِّتُ الْأَحْيَاءِ» [نهج البلاغة، الخطبة 78]. [انظر: مطهرى، فلسفه اخلاق، ص 165 – 179]

النوع الآخر من الاغتراب في نظر المفكّرين المسلمين هو أن يعتبر الإنسان مستقلًّا ومكتفيًا بذاته، أو أنّه مرتبط ومتعلّق بغير الله، في هذه الحالة أيضًا يرسم الإنسان صورةً خاطئةً عن هويته ويصبح مستلبًا وغريبًا.

وبهذا يتّضح جواب إشكالٍ قد ينقدح في الذهن وهو: أليس التوحيد الخالص والخضوع التامّ لله

نوعًا من الاغتراب، فقد يقال إنّ الإنسان المؤمن يسلّط الله على ذاته، ويعدّ رغبة الله رغبته وكلّ ما يقوله يعمله، وأوج التوحيد وقمته أن يخضع الإنسان مطلقًا لله وينسى ذاته. إذن الإنسان الموحّد هو مغترب أيضًا. لكن ـ كما ذكر سابقًا ـ فإنّ للإنسان هويةً إلهيةً نشأت منه وتعود إليه، حقيقته وهويته هي عين التعلّق والارتباط بالله، وخضوعه لله هي نفس انعتاقه. فالله هو أصلنا وبخضوعنا لله نعتق أنفسنا: ﴿إِنَّا لِلّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ﴾ [سورة البقرة: 156]، فإذا شهدنا أنفسنا شهدنا الله، وإذا خضعنا ووجدنا الله وجدنا ذواتنا.

من خلال هذه الرؤية، ندرك الحديث الشريف: «من عرف نفسه فقد عرف ربّه» [المجلسي، بحار الأنوار، ج 2، ص 32]، والآية الشريفة: ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [سورة الحشر: 19]. [راجع: بزرگی، حقیقت و چیستی از خود بیگانگی، ص 48]

الاغتراب الثقافي ـ الاجتماعي (ضياع الهوية الاجتماعية)

إنّ الاغتراب فردي واجتماعي، وما ذكر سابقًا مرتبط بالاغتراب والاستلاب الفردي، لكن قد يصبح المجتمع مستلبًا ومغتربًا أحيانًا، فيعتقد نفسه مجتمعًا آخر. فهنا كذلك، يظنّ المجتمع هوية مجتمع آخر غير هويّته، ويجعل من المجتمع الآخر الأساس والأصل، بل والوطن.

لقد ظهرت في المجتمعات العربية والإسلامية رؤًى وأفكار ومعتقدات وتيارات تروج هنا وهناك تعتبر أنّ المجتمع المثالي هو المجتمع الغربي والحضارة الغربية، بل يرى أتباع هذه التيّارات أنّ تقدّم المجتمع العربي والإسلامي وتطوّره رهينٌ بمدى قدرته على تمثّل الغرب والأفكار والممارسات الغربية، إلى درجة أنّهم يرون ضرورة أن يصير المجتمع الإسلامي غربيًّا بصورة كاملة حتّى يصبح متقدّمًا، وبالتالي فهم يرمون إلى تغريب المجتمعات الإسلامية. [راجع: حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية، ص 9]

3ـ صور من الاغتراب

إنّ هنالك عدّة أشكال يمكن تصوّرها للاغتراب، حيث يمكن ذكر ما يلي منها:

أ ـ إضفاء الأصالة على الآخر فيما يتعلّق بنمط الحياة

يعطي الإنسان المغترب الأصالة للآخر في بعض نمط حياته أو كله، فيجعل الآخر هو الأصل في التقييمات، والشعور بالآلام، وتشخيص الأمراض، والمشكلات وطرق حلّها، والحاجات والمثل، ويقيس أموره على أساسه، يحكم عليها، ويختار، ويعمل طبقها. يتحدّث القرآن الكريم عن المرابين

بقوله: ﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا إِنَّمَا الْبَيْعُ مِثْلُ الرِّبَا﴾ [سورة البقرة: 275].

بقليل من التأمّل في مضمون الآية الشريفة، يصل القارئ إلى هذه النتيجة وهي أنّه بالالتفات إلى محورية الربا وأكل الربا في الآية الشريفة، فإنّ المقتضى الطبيعي لسير البحث هو أن يقال بأنّ ظهور مثل هذه الحالة للمرابين هو بسبب قولهم: الربا مثل البيع والشراء، وإذا لم يكن هناك مانع من البيع والشراء، فلا مانع من الربا أيضًا. لكن مثلما هو ملاحَظ، الآية الشريفة تقول: المرابون يقولون البيع والشراء مثل الربا. ذهب بعض المفسرين في تبيين هذا الكلام وتوجيهه إلى القول بأنّ هذه الجملة تشبيه معكوس استخدمت بقصد المبالغة، بمعنى أنّ مقتضى الكلام هو أنْ يشبَّه الربا بالبيع والشراء، لكن لغرض المبالغة حدث العكس وشُبّه البيع والشراء بالربا. [رجبي، الاغتراب عند العلّامة الطباطبائي، المعارف الحكمية]

إنّ من استقرّ به الخبط والاختلال يكون واقفًا في موقف خارج عن العادة القويمة؛ ولهذا فإنّه لا يرى فرقًا بين البيع والشراء والربا، فكما يمكن أن يقول الربا مثل البيع والشراء، قد يقول أيضًا البيع والشراء مثل الربا. لقد ساوى بينهما!

الملاحظة المكمّلة في تفسير العلّامة حول هذه الآية هو أنّه نظر إليها من خلال لحاظ مسألة الاغتراب وإعطاء الأصالة إلى الآخر. بهذه النظرة، الإنسان المغترب، الذي يعطي الأصالة للآخر، يعتقد بالأصالة لشؤون الآخر، والأصالة لكلّ مسائل الآخر وفروعه وأبعاده. في نظر المرابي، الأصالة مع الربا والبيع والشراء أيضًا مثل الربا. في الواقع، يفكّر بهذه الطريقة وهو أنّ الربا ليس فقط لا إشكال فيه، بل الطريق السليم لكسب الربح هو الربا وليس البيع والشراء. يشرّع البيع والشراء لأنّها يشبهان الربا في كسب الربح.

في الواقع، يحسب المرابي أنّ الإنسان حيوان كلّما تمتع من الدنيا بصورة كبيرة ومتنامية كان أكمل وأقرب إلى الهدف، وأكل الربا هو المصداق الأتمّ لهذا التمتّع، وأنّ البيع والشراء أيضًا لا بدّ أن يسير نحو هذا الاتّجاه.

وهذا ويرى العلّامة الجعفري، أنّ من يعلم أنّ ظلم الآخرين هو في الحقيقة ظلم لنفسه وحرب عليها ومع ذلك يظلمهم، فهو في الحقيقة ينكر ذاته وبالتالي فهو مغترب عنها. [جعفرى، ترجمه و تفسير نهج البلاغه، ج 1، ص 116 و117]

ب ـ اختال التوازن الروحي

إذا اغترب الإنسان وترك عنانه بيد غيره، يفقد توازنه لسببين:

الأوّل هو أنّ حركات الآخر لأنّها لا تنسجم مع مقتضى بنيته الوجودية، فإنّها تؤدّي إلى فقدان التوازن.

الثاني هو أنّ ذلك الآخر يشمل موجوداتٍ متعدّدةً ومتنوّعةً. ذلك الآخر ولو كان نوعًا خاصًا من الموجودات ـ كبقية الناس الآخرين على سبيل المثال ـ فله أفراد متعدّدة ومتنوّعة. هذه الموجودات المختلفة أو الأفراد المتعدّدة، لديها رغبات متضادّة أو على الأقلّ مختلفة، تؤدّي إلى الإخلال بتوازن الإنسان المغترب. القرآن الكريم الذي يعدّ الإنسان المشرك مغتربًا يقول: ﴿أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [سورة يوسف: 39]. ويقول أيضًا: ﴿ضَرَبَ اللهُ مَثَلًا رَجُلًا فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلًا سَلَمًا لِرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلًا﴾ [سورة الزمر: 29].

ويقول أيضًا: ﴿وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ [سورة الأنعام: 153].

في الآية 275 من سورة البقرة أيضًا مثلما مرّ، اعتبر سلوك المرابي كالإنسان المصروع الذي لا فقد التوازن وفقدان التوازن في سلوكه هو نتيجة اختلال توازنه الروحي واستقامة فكره.

جـ العبثية واللامعيار

طبقًا لما مرّ، يبتلى الإنسان المغترب بالعبثية. في الواقع، هو بنفسه لا يختار الهدف بصورة معقولة ومدروسة، بل هو مذبذب في حياته وسلوكه. في رؤية القرآن الكريم، المنافقون الذين هم قسمٌ من المغتربين، يوصفون بهذا الشكل: ﴿مُذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَلِكَ لَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَلَا إِلَى هَؤُلَاءِ وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ سَبِيلًا﴾ [سورة النساء: 143].

هكذا الإنسان حسب تفسير الإمام علي عليه السلام هم مصداق ومورد لـ: "يميلون مع كلّ ريح" ومن دون ذلك الآخر ـ المتعدّد والمتشتّت كما قيل ـ لا يوجد لديهم معيار، وعدد أولئك الغرباء يجلب عليهم العبثية والاضطراب. [رجبي، الاغتراب عند العلّامة الطباطبائي، المعارف الحكمية]

ـ فقدان الاستعداد والقدرة على تغيير الحال

الإنسان المغترب الذي يعتقد الآخر ذاته ويغفل عن نفس واقعه، أو نتيجة اعتقاده بحسن وضعه غير مستعدٍّ بأيّ شكلٍ من الأشكال إلى تغيير وضعه، ويقاوم ذلك، أو أنّه نتيجة غفلته عن نفسه وحسن وضعه، لا يفكّر في تغيير الوضع، ومن هنا، ليس له القدرة على تغيير الوضع، ولأنّها جميعًا

كانت نتيجة اختياره وانتخابه الواعي، يقع محلًّا للإدانة.

إنّ العديد من الآيات مع إدانتها للكفّار والمنافقين ترى أنّ طريق الهداية أمامهم مسدود، وأنّ استمرار ضلالتهم حتمي ـ مثل قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُضْلِلِ اللهُ فَما لَهُ مِنْ هادٍ﴾ [سورة الرعد: 33] ـ وكأن هذه هي الحقيقة. هؤلاء سعداء بما عندهم من علم قليل في قبال أدلّة الأنبياء عليهم السلام الواضحة والقاطعة: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾ [سورة غافر: 83].

ويقول في موضع آخر: ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ ذُكِّرَ بِآيَاتِ رَبِّهِ فَأَعْرَضَ عَنْهَا وَنَسِيَ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ إِنَّا جَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ تَدْعُهُمْ إِلَى الْهُدَى فَلَنْ يَهْتَدُوا إِذًا أَبَدًا﴾ [سورة الكهف: 57].

وسنذكر فيما بعد أنّ نسيان الأعمال السابقة وعدم تقييمها هو عاملٌ مهمٌّ للاغتراب. وقد طرح العجز عن تصحيح الوضع وعدم القدرة على التغيير في هذه الآية أيضًا باعتباره مظهرًا للاغتراب.

ـ أصالة المادّة والمادّيات

مثلما مرّ، يشكّل البعد الروحاني وما فوق الحيواني هوية الإنسان الواقعية، لكن إذا اعتقد الإنسان أنّ ذاته هي الآخر، من الطبيعي أن يعتقد أن هوية الآخر هي هويته. وببيان القرآن، يخلع الإنسان المغترب دائمًا على نفسه الحيوانية بدل هويته الواقعية، ولأن الحيوانية أخذت محلّ الإنسانية؛ فهو يعتقد أنّ كلّ ما هو موجود هو هذا الجسم وهذا الرخاء المادّي.

فليس الإنسان سوى هذا الجسم المادّي وهذه الغرائز الحيوانية، كما أنّ عالمه منحصر في العالم المادّي. وفي هكذا ظروف، يقل المغترب: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ [سورة الكهف: 36]. ويقول: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [سورة الجاثية: 24].

نتيجة نظرة كهذه، تصير حاجات إنسان كهذا أيضًا حاجاتٍ حيوانيةً: الغذاء واللباس والتمتع ببقية اللذائذ الدنيوية: ﴿يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ﴾ [سورة محمد: 12].

كما أنّ هذه المنتجات المادية والكمالات الدنيوية تصير هي كماله ويفرح ببلوغها: ﴿وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا مَتَاعٌ﴾ [سورة الرعد: 26]. مثل هذا الإنسان، ينفد صبره عند أدنى مرض جسمي لأنّه بالنسبة إليه جدّ مهمٍّ: ﴿إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا﴾ [سورة المعارج: 20]. لكنّه لا يدرك حجم السقوط المعنوي الذي ابتلي به وخطورة المرض الروحي والإنساني الذي أصابه، بل يعتقد بحسن

الأعمال التي هي علامة المرض وسبب السقوط. لأنّه لو كان حيوانًا، فحقًّا هي جيدة بالنسبة إليه، وقد قلنا إنّه يعدّ نفسه حيوانًا: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا ۞ الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا﴾ [الكهف: 103 و104].

فرد كهذا إذا رأى الألم هو ألم حيوان فإنّه يعتقد أنّ العلاج هو علاج حيوان، وينظر أساسًا إلى كلّ الأمور من زاوية مادية، حتّى ولو يعاقبه الله فإنّه بدل أن يستفيق ويتنبه ويرجع يقوم بتفسير تلك العقوبة ماديًّا وفي إطار هذا العالم.

﴿وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَبِيٍّ إِلَّا أَخَذْنَا أَهْلَهَا بِالْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ لَعَلَّهُمْ يَضَّرَّعُونَ ۞ ثُمَّ بَدَّلْنَا مَكَانَ السَّيِّئَةِ الْحَسَنَةَ حَتَّى عَفَوْا وَقَالُوا قَدْ مَسَّ آبَاءَنَا الضَّرَّاءُ وَالسَّرَّاءُ فَأَخَذْنَاهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة الأعراف: 94 و95].

ـ عدم استخدام العقل والقلب

من يبتلى بالاغتراب يعتقد الشيطان أحيانًا، أو الحيوان أحيانًا، أو موجودًا آخر أحيانًا ذاته ويستسلم له ويختصر ذاته في هذه الدنيا ولذائذها. بالتالي يختم على أدوات المعرفة الإنسانية العقلانية والقلبية لديه، ويسدّ طرق المعرفة الحقيقية على نفسه.

﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اسْتَحَبُّوا الْحَيَاةَ الدُّنْيَا عَلَى الْآخِرَةِ وَأَنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [سورة النحل: 107 و108].

يحصل هذا الختم على القلب والسمع والأبصار من خلال اختيار الحياة الحيوانية، والسير في ذلك الطريق، وكلّ ذلك نتيجة اختيار الحياة الحيوانية؛ ولهذا إنسان كهذا هو أقلّ شأنًا من الحيوان: ﴿أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ [سورة الأعراف: 179]؛ لأنّ الحيوانات لم تختر الحيوانية بل خلقت حيوانًا، وليس حركتها في مسير الحيوانية نتيجة الاغتراب، لكن الإنسان خلق إنسانًا، وإذا اختار الحيوانية فقد اغترب عن نفسه.

4ـ علاج الاغتراب

إنّ القيام بتقييم نقدي للماضي مصحوبًا بالتقوى، بعد اليقظة والاستفاقة من الغفلة، سيكون له نفع كبير للوقاية من الوقوع في ورطة الاغتراب والنجاة منه. فلو لم يقم الفرد أو المجتمع بعملية نقدية للأعمال التي يقوم بها، بأن لا تكون هناك محاسبة للنفس في البعد الفردي، وأن لا تكون هناك معلومات كافية عن الثقافة الذاتية والغريبة، وأن لا يكون هناك اعتراف ومراجعة في مجال طريقة واختراق الثقافة الغريبة للثقافة الذاتية، فإنّ إمكانية الابتعاد عن الهوية الواقعية سيكون كبيرًا جدًّا،

وهذا الابتعاد يمكنه أن ينجرّ إلى الحدّ الذي يؤدّي فيه إلى نسيان الذات والثقافة الذاتية، وإلى الاغتراب، ولا يبقى هناك مجال للنجاة من الاغتراب. [رجبي، الاغتراب عند العلّامة الطباطبائي، المعارف الحكمية]

﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ﴾ [سورة الحشر: 19].

يقول علماء العلوم الاجتماعية حول نجاة الإنسان من معضلة الاغتراب: بعد أن يلاحظ الإنسان أنّه قد تورّط في الاغتراب، فعليه أن يراجع ويقيم ماضيه. فلا يمكنه من خلال العزم على ملاحظة ذاته من أوّل وهلة، ومن دون ملاحظة الماضي، أن يحلّ معضلته. [رجبي، الاغتراب عند العلّامة الطباطبائي، المعارف الحكمية]

طرحت في هذه الآية الشريفة، مسألة دقيقة جدًّا ومضبوطة، حيث اعتبرت التقوى نقطة البداية: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ﴾، فإذا صارت تقوى الله هي مدار الحياة فلن يكون هناك حاكم على الإنسان سوى الله، ويتمتع الإنسان بالمناعة الكافية من الاغتراب.

المرحلة الثانية، هي مراجعة الأعمال التي قام بها من أجل سعادته. فالإنسان في اللحظة نفسها التي يقوم بها بعمل من أجل الله، قد يتحكم فيه آخر بشكل غامض، من هنا، عليه أن يراجع ويقيّم حتّى تلك الأعمال التي يظنّ أنّها حسنة، وقد يغفل ويخدع الفرد ذاته في نفس التقييم والمراجعة أيضًا؛ ولهذا ذكر القرآن مرّةً أخرى: ﴿وَاتَّقُوا اللهَ﴾.

يقول المفسّرون في ذيل هذه الآية إنّ المراد من التقوى الثانية هو التقوى في مراجعة الأعمال وتقييمها. فلو لم يتحلَّ الإنسان في هذه المرحلة أيضًا بالتقوى، فإنّه يتورّط في خداع نفسه، ويسير بها نحو الاغتراب. فالقرآن الكريم يقول: يا أيها الذين آمنوا، اعملوا بهذه الطريقة حتّى لا تبتلوا بنسيان الله ﷻ، وبالتالي نسيان أنفسكم. وعلى هذا، مراجعة الأعمال وتقييمها لوحده غير كافٍ. بل يجب ـ حسب النظرة القرآنية ـ أن تكون مراجعة الأعمال مصحوبة بالتقوى الإلهيّة حتّى تبلغ النتيجة المرجوّة. [رجبي، الاغتراب عند العلّامة الطباطبائي، المعارف الحكمية]

تجدر الإشارة في النهاية إلى أنّه من الممكن أن يقوم الناس والمجتمعات في الماضي بالتخطيط ووضع برامج لأنفسهم كي يقوا أنفسهم ويحفظوها من مشكلة الاغتراب، لكن اليوم ـ مع الاختيار الحرّ للناس ـ قد يقوم الآخرون بالتخطيط ووضع البرامج للناس والمجتمعات، وهذه المسألة هي نفسها مسألة الغزو والاغتراب الثقافي المطروحة اليوم. يتوجّب علينا أن لا نتصوّر أنّنا إذا غفلنا عن أنفسنا وتوقّفنا جانبًا فإنّه لا توجد هناك مخطّطات تستهدفنا.

في قريتنا العالمية هناك دائمًا طوائف اجتماعية، وأحزاب سياسية، ومستثمرون، والقوى المتسلّطة تسعى من أجل أهدافها المادّية، من خلال وضع الخطط الهدّامة لبلوغ أهدافها والاستفادة من الأفراد

والمجتمعات المختلفة. ومن سذاجة التفكير أن يُتصوّر أنّهم يسعون إلى المثل الإنسانية وحقوق البشر والأهداف الإنسانية العالية من خلال النزاع أو الصلح مع بقيّة البشر والمجتمعات الإنسانية. في مثل هذه الظروف، تعدّ الغفلة عن هذه المخطّطات الهدّامة والبرامج الغريبة خطرًا كبيرًا، وإذا أردنا النجاة من هذه المهلكة يجب علينا اتّخاذ منهج أمير المؤمنين عليه السلام حين قال: «فما خلقت ليشغلني أكل الطيّبات، كالبهيمة المربوطة، همّها علفها، أو المرسلة شغلها تقمّمها[1]، تكترش من أعلافها، وتلهو عمّا يراد بها. أوأترك سدًى وأهمل عابثًا» [نهج البلاغة: الكتاب 45].

بناءً على هذا، قد يحدث الاغتراب أحيانًا بأيدينا وأحيانًا أخرى بغفلتنا وبرمجة الغير. يحلّ الإنسان الموجود الآخر محلّ ذاته أحيانًا فيغترب، وأحيانًا يغفل عن ذاته فيقوم الآخرون بتحديد ذاتٍ له فيستثمرونه ويعيّنون له ذاتًا تتناسب مع أهدافهم. [رجبي، الاغتراب عند العلّامة الطباطبائي، المعارف الحكمية]

وفي المجتمعات البشرية أيضًا، يغفل المجتمع عن ذاته فينهض المستثمرون من أجل تحديد هويته الثقافية ويعطونه المثال والقدوة. وعليه بمقدار ما يعتبر الاغتراب الفردي ضارًّا، كذلك فقدان الهوية الثقافية والاجتماعية ضارّةً أيضًا، وعليه يلزم من أجل النجاة والتخلّص من هاتين الآفتين معرفة الهوية الفردية والاجتماعية الواقعية، وأن نحرص عليها باستمرار.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنْفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُمْ مَنْ ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ إِلَى اللهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [سورة المائدة: 105].

1ـ أي البهيمة السائبة شغلها أن تلتقط القمامة.

الخاتمة

إنّ للنفس في اللغة والقرآن معاني متعدّدةً من بينها الروح الإنسانية، وقد استخدم بعض العلماء المسلمين هذا المعنى، حيث عبّروا عنه بالأنا والنفس.

وعلى الرغم من أنّ النفس هي أمرٌ مجرّد وواحد، إلّا أنّ لها مراتب نباتيةً وحيوانيةً وإنسانيةً. وحيث إنّ المراتب النباتية والحيوانية ضرورية وأساسية بالنسبة للحياة الإنسان، إلّا أنّها لا تشكّل حقيقة الإنسان ولبّه. وما يشكّل حقيقته هو المرتبة العالية للنفس، فلو حاد الإنسان عنها فإنّه سيقع في الاغتراب والابتعاد عن أناه.

إنّ أنا الإنسان مرتبطةٌ أشدّ الارتباط بالله الذي أوجدها وخلقها؛ إذ لا استقلال لها بالذات، وأمّا وجودها فمتعلّقٌ أشدّ التعلّق بالله. وعلى هذا الأساس فإنّ النظرة الاستقلالية للنفس هي نظرة اغتراب، ومن رأى النفس كذلك فإنّه غريبٌ عن نفسه وعن الأنا. ومن هنا يمكن القول إنّ هنالك علاقة تلازم بين الاغتراب عن النفس والابتعاد عن الله؛ إذ أشارت العديد من الأدلّة العقلية والآيات والنصوص إلى ذلك.

بناءً على ما تقدّم فإنّ من يهمل البعد الروحي للإنسان والعلاقة مع الله تعالى، لا يمكنه تقديم تحليل معقول ومقبول حول مفهوم الاغتراب.

قائمة المصادر

القرآن الكريم.

نهج البلاغة.

ابن سينا، الحسين بن عبد الله، النفس من كتاب الشفاء، تحقيق حسن حسن زاده آملي، قم، مكتب الإعلام الإسلامي، 1417 هـ.

ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، دار إحياء التراث، بيروت، 1995 م.

بزرگی، سیدعبادین، حقیقت و چیستی از خود بیگانگی، مجله حکمت آیین، سال 8، شماره 27، بهار 1395 ش.

جعفری، محمدتقی، ترجمه و تفسیر نهج البلاغة، مکتب نشر الثقافة الإسلامية، 1374 ش.

حليم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط 1، 2006 م.

الراغب الأصفهاني، حسين بن محمد، مفردات ألفاظ القرآن، دار العلم، بيروت، 1412 هـ.

رجبی، محمود، انسان شناسی [علم الإنسان]، مؤسسه آموزشی و پژوهشی امام خمینی ﷺ، قم، 1380ش.

سروش، عبدالکریم، قصه ارباب معرفت [قصة أرباب المعرفة]، مؤسسة الصراط الثقافية، طهران، 1373 ش.

صدر المتألهين، إبراهيم، الحكمة المتعالية في الأسفار الأربعة، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 1423هـ.

الطباطبائي، محمدحسين، الميزان في تفسير القرآن، جامعة مدرسين، قم، 1417 هـ.

الطباطبائي، محمدحسين، نهاية الحكمة، جامعة مدرسين، قم، 1416 هـ.

الطبرسي، الفضل بن حسن، مجمع البيان في تفسير القرآن، دار المعرفة، بيروت، 1986 م.

الفيومي، أحمد بن محمد، المصباح المنير، دار الهجرة، قم، 1405هـ.

کوبلستون، فردریک، تاریخ فلسفه [تاريخ الفلسفة]، ترجمه داریوش آشوری، سروش، طهران، 1367 ش.

المجلسي، محمدباقر، بحار الأنوار، دار الكتب الإسلامية، طهران، 1362 ش.

مصباح یزدی، محمدتقی، به سوی او [التوجه نحوه]، مؤسسه آموزشی و پژوهشی امام خمینی ﷺ، قم، 1388 ش.

مطهری، مرتضی، سیری در نهج البلاغة [سيرٌ في نهج البلاغة]، صدرا، طهران، 1366 ش.

مطهری، مرتضی، فلسفه اخلاق [فلسفة الأخلاق]، صدرا، طهران، 1366هش.

مطهری، مرتضی، یادداشت های استاد مطهری [مذكرات الأستاذ مطهري]، صدرا، طهران، 1378ش.

Refrence

Ibn Sina (Avicenna), al-Hussein bin Abdullah, ***Al- Nafs min Kitab al-Shifa'***, achieved by Hassan Zadeh Amoli, Qom, Islamic Information Office, 1417 AH.

Halim Barakaat, ***Alienation in Arab Culture***, al-Wah al-Arabiyya Center for Studies, Beirut, 1st edition, 2006 AD.

Copleston, Frederick, ***A History of Philosophy***, translated by: Dariush Ashuri, Soroush, Tehran, 1367 Iranian Calendar.

Al-Majlisi, Muhammad Baqir, ***Biharul-Anwar***, Darul-Kutub al-Islamiyya, Tehran, 1362 Iranian Calendar.

Mahmoud Rajabi, ***Humanism***, Imam Khomeini Foundation for Education and Research, Qom, 1380 Iranian Calendar.

Motahhari, Morteza, ***Philosophy of Ethics***, Sadra, Tehran, 1366 Iranian Calendar.

Motahhari, Morteza, ***A Journeyin Nahjul-Balagha***, Sadra, Tehran, 1366 Iranian Calendar.